الغدد الصماء

في سنة ١٧٤٩ قدم باريس من جبال بيرنيس طبيب شاب اصبح فيما بعد اشهر اطباء عصره وهو تيوفيل دي بورديه . فعين استاذاً للتشريح في مونبلييه ومفتشاً للمياه المعدنية في اوش وبو . ثم عين عضواً مراسلاً للاكادمية الفرنسوية فاخذ صيته ينتشر في باريس حتى حسده طبيب غني معروف اسمه بوفار وقاضاه في المحاكم متهماً اياه بسرقة جواهر كانت على جثة امرأة . وهي من التهم التي كثيراً ما كان الاطباء يتهمون بها في القرن الثامن عشر . فحذف اسمه اولاً من سلك الاطباء ثم اعيد بقانون اصدره البرلمان بعد نزاع طويل دخله بعض اهل الجاه والنفوذ دفاعاً عنه . وما زال السعد يخدمه حتى دعي لمعالجة الملك لويس الخامس عشر وهو على سرير النزع

اما شهرة بورديه اليوم فمحصورة في رأي ارتآه وهو ان كل غدة من غدد الجسم وكل عضو من اعضائه معمل لمواد او مفرزات خاصة تنصب في الدم وان صحة الجسم الفسيولوجية تتوقف على تلك المفرزات . وهذا المذهب قريب من المذهب الحديث المعروف باسم مذهب الافراز الباطني ولكن اطباء عصره لم يعبأوا به كثيراً لان بورديه اقتصر على مجرد الرأي ولم يعززه بالتجارب اللازمة

من اقدم الآراء الطبية ان امعاء الحيوانات ومحتوياتها ذات فائدة في شفاء الامراض بسيطة او مركبة . وكان اطباء المصريين القدماء واليونان والرومان والعرب يعالجون بها حتى انك لا تقرأ عن حيوان في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري مثلاً الا وتراه يعدد فوائد اعضائه في شفاء الامراض

وكان الرومان القدماء يقيسون غلظ عنق المرأة في الثؤلول المتعلقة بالحبل ولكن ليس ثمة ما يدل على انهم كانوا ينسبون تضخم العنق الى تضخم الغدة الدرقية مع معرفة القدماء لهذا الداء . فقد قال جوثينال في بعض كتاباته : من يعجب لظهور الغوائر (تضخم الغدة الدرقية) في الالب ؟ » . واشار بلينوس في تاريخه الطبيعي الى رأي من الآراء الشائعة في سبب ذلك التضخم حيث قال:

لا يصاب بورم الحنجرة الا الناس والخنازير ومعظم السبب فيه هو رداءة الماء الذي يشرب » . ووجد براسلس الفواتر متفشياً في بلاد سلزبرج (المانيا) ونسبهُ الى الشوائب المعدنية في ماء الشرب ولاحظ ان المصابين به مصابون ايضاً بالكريتنزم (داء يصحبهُ البَلَه) او المكسيديما . ومما قالهُ ان الفواتر ليس من خصائص البُله ولكنهُ اكثر وجوداً فيهم منهُ في غيرهم ثم علل ذلك بتعليلات اشبه باقوال الدجالين والمنجمين . وقال غيرهُ ان البله قد يولدون من امهات مصابات بالبله وان زواج ابله ببلهاء عقيم على الغالب

وكلما تبينا علاقة هذه المظاهر المختلفة بالغدد ذات الافراز الباطني لم نعجب من ان بورديه الذي كان اول من جاهر بالرأي الحديث فيها ذكر الوظائف التناسلية كاعظم شاهد عليها فان جميع تلك الغدد ذات علاقة بخصائص الفرد الجنسية من تذكير وتأنيث . ولننتقل الآن الى وصف الامراض المختلفة التي لها علاقة بالغدد المشار اليها فنقول :

في اوربا داء اسمهُ داء باسدو او داء فلاجاني نسبة الى طبيب الماني وطبيب ايطالي كانا اول من وصفاهُ على ما يقال . فان باسدو الالماني نشر سنة ١٨٤٠ وصفاً تاماً لهُ اعتمدهُ الالمان وعدُّوهُ وافياً من الوجهة العلمية . وقد ذكر لهُ ثلاثة اعراض وهي ورم الغدة الدرقية ، وجحوظ المقلتين (ومنهُ سمي في العربية غوتر الجحوظ) وخفقان القلب . اما الانكليز فيسمونهُ داء جرايفز نسبة الى طبيب ارلندي مشهور نشر وصفاً دقيقاً لهُ سنة ١٨٣٥ . وقبل باسدو بخمسين سنة وصف طبيب انكليزي اسمهُ بري اصابة بهذا الداء كان يعالجها . ومما جاء في وصفهِ اياها قولهُ بعنوان « تضخم الغدة الدرقية بتضخم القلب او خفقانه » :

« اول اصابة شاهدتها واتفق فيها وجود التضخمين معاً هي حادثة امرأة متزوجة عمرها ٣٧ سنة وكان ذلك في اغسطس سنة ١٧٨٦ . وكانت قبل ظهور التضخم بست سنوات قد اصيبت ببرد في أثناء تعاسها وبقيت شهراً تقاسي آلاماً حمى حدارية حادة . ثم جعلت تصاب بخفقان يزداد بازدياد الحركة البدنية وكان يشتد ويزيد تكرراً شيئاً فشيئاً فلما عدتها كان قد بلغ من الشدة أن كل انقباضة من انقباضاته كانت تهز الصدر كلهُ من دفتيهِ . وكان عدد نبضاتها ١٥٦ في الدقيقة

والنبض كثير الامتلاء غير منتظم في قوته متقطعاً مرة في كل ست نبضات . ولم تكن تسعل ولا كانت تصاب بنوب اغماء ولا كان لون بشرتها ضارباً الى الزرقة ولكنها اصيبت مرتين او ثلاثاً في الليل بعسر تنفس صحبهُ بصق دم . وقالت انها كانت تشعر بوخز شديد في اسفل القصّ

« وبعد ثلاثة اشهر من تفاسها شوهدت كتلة بحجم الجوزة على جانب عنقها الايمن وبقيت تكبر حتى دارت حول عنقها وبرزت من تحت فكها الاسفل واسمى حجمها هائلاً . اما الجزء الذي وقع الورم فيهِ فهو الغدة الدرقية ولكن الشريانين السباتيين على جانبي العنق تمددا كثيراً والعينين جحظتا من محاجرهما . ولم تكن تشعر بألم في رأسها بل كانت تصاب بالدوار آناً بعد آن » . وبعد ان وصف طريقة معالجتهِ اياها قال « ولم اسمع عنها بعد ذلك والمرجح انها دفنت دينها الى الطبيعة سريعاً »

وبين سنة ١٧٨٦ و ١٨١٥ وصف بري ثماني اصابات اخرى بهذا الداء فنشر الوصف بعد موتهِ سنة ١٨٢٥ . وفي ١٨٣٣ نشر فلاجاني وصفهُ واشار فيهِ الى عرضين من اعراض الداء الجوهرية وهما التضخم والخفقان . وفي ١٨٣٥ نشر الدكتور جرايفز الانكليزي وصفهُ . ومما جاء فيهِ قولهُ ان الخفقان اشتد في احد المصابين بهذا الداء حتى كان يسمع صوت الضربان عن بعد اربع اقدام على القليل . وشاهد الاطباء بعد جرايفز وباسدو كثيراً من هذه الاصابات ولكن لم ينسبها احد الى زيادة افراز الغدة الدرقية الا باسدو سنة ١٨٨٦ . وكان طبيب انكليزي اسمهُ كرلنغ اول من لاحظ سنة ١٨٥٠ ان فقد الغدة الدرقية يصحبهُ ورم في النسيج الدهني على جانبي العنق وضعف في القوى العاقلة

ومما يستحق الذكر ان العدد من المجلة الطبية التي نشر باسدو فيها خلاصة بحثهِ في تضخم الغدة الدرقية تضمن وصف اصابة بقلم بنهارد موهر من اساتذة احدى الجامعات الطبية الالمانية وخلاصتهُ ان امرأة متقدمة في السنّ ماتت بعد ممن هائل رافقهُ بله وفقد الذاكرة ونعاس وضعف في البصر . وبعد تشريح جثتها وجد حؤولاً في الغدة النخامية ناشئاً عن دخول مقدار كبير من سائل مصليّ افضى الى ضغط الاجزاء المجاورة للدماغ . وهذه هي اول مرة ذكر فيها ما يسمى الآن بالسمن النخامي او البلغمي

ومع هذا كله لم يلتفت الاطباء الالتفات الكافي الى الغدد الصماء والى الآفات التي تتسلط عليها حتى سنة ١٨٥٥ حينما اصدر الطبيب اديسون الانكليزي مؤلفاً في الداء الذي يصيب المحفظتين في اعلى الكليتين وقدمي بعد ذلك باسمه. وكان قبل ذلك بعدة سنين قد قرأ في احدى الجمعيات الطبية مقالة وصف فيها اعراض الداء المسمى الآن الانيميا الخبيثة وقال انهُ شرّح جثث ثلاثة من المصابين بهذا الداء فوجد ان المحفظتين مصابتان فيهم. فخطر ببالهِ ان ذلك ليس مجرد اتفاق وان المحفظتين اللتين كان امرهما لا يزال سرًّا مكتوماً حتى يومهِ لا بدّ ان يكون لهما يد في تكوّن الدم. وان تعطل وظيفتهما او اندثار نسيجهما قد يضران ببناء الجسم عامة والكريات الدموية خاصة. ولما اصدر كتابهُ المشار اليهِ وصف فيهِ اعراض الداء المسمى باسمهِ كما هي معروفة اليوم ولكنهُ لم يبدِ حكماً قاطعاً في المسألة بل قال ان المحفظتين كليتيهما قد تصابان من غير ان يلوّن جلد المصاب باللون الخاص بالانيميا الخبيثة

وهناك داء آخر وهو داء الجبارة المسمى اكروميجلي. واول من اوضح الفرق بينهُ وبين الادواء التي تصيب العظام فتشوهها وتضخمها بيير ماري تلميذ شاركو وهو الذي سماهُ بالاسم المتقدم وارجعهُ الى الداء الذي يصيب الغدة النخامية. وكان بعض الاطباء قبلهُ قد لاحظوا اصابة هذه الغدة في الداء المذكور ومنهم ادوين كليبس الانكليزي ولكن بيير ماري هو اول من نسب الداء الى اصابة الغدة النخامية وعليهِ جمهور الاطباء الى الآن. ومما يستحق الذكر في الكلام على الغدة النخامية انها ما زالت من عهد جالينوس الى القرن السابع عشر تحسب مصدر المخاط الذي ينزل من الانف ولكن شنيدر الالماني ولوير الانكليزي ابانا فساد هذا الرأي في اواخر القرن المذكور. وقال بوردبه بان القدماء كانوا يعتقدون ان وظيفة الغدة النخامية او البلغمية انما هي ان تفرز ما تحتويهِ بطريق الانف وان المحدثين ذهبوا الى ان هذه الغدة تصبّ محتوياتها في تجاويف السرج التركي الذي تعتمد عليهِ. ولكنهُ هو نفسهُ قال ما يفهم منهُ ان مفرزات هذه الغدة تذهب الى الدم